د. منير لطفي
طبيب وكاتب

جبر الخواطر

أفقر الفقر ما جاء بعد غنى، وأذل الذل ما حل عقب عز؛ إذ تجتمع على هذا الغني مصيبة ذهاب الغنى ونكبة حلول الفقر، وتتكالب على ذاك العزيز فجيعة أفول شمس العز ونازلة هبوب ريح الذل، فكان كمرتحل من القصر إلى الأسر، أو من الدار إلى النار وبالله العياذ! ولهذا كانت الرحمة بعزيز ذَلَّ وغني افتقر؛ من شيم النبلاء، وخصال أصحاب المروءات، ووصية خير من عرفت البريات.

ومن هؤلاء -وهم بالمناسبة من الأخفياء الذين يحتجبون عن الأنظار- زارتني خادمة تشادية، رشيقة القوام كسيف، وسمراء البشرة كليل، بعدما نزحت من شمال تقطنه أغلبية عربية مسلمة، وتهيمن عليه تضاريس صحراوية قاحلة. ومن خلال سمتها وإيماءاتها وطريقة عرضها لشكايتها، شعرت أنها ابنة عز وحسب ونسب، ولولا أن مخدومها الذي صحبها أخبرني سلفا أنها خادمته، لاعتقدتها زوجته أو شقيقته، خاصة أنها بدت متسترة غير سافرة، وترتدي العباءة السوداء السابغة ككل نساء الخليج حال خروجهن من خدورهن، علاوة على لغتها العربية الطليقة على طريقة العرب، لا على طريقة العجم الذين يمضغون الحرف قبل لفظه، فيأتي مهشما مشوها لا تدري له كنها ولا تحدد له مخرجا! وما لا يعلمه الكثيرون، ومنهم كفيلها، أن تشاد دولة عربية إسلامية، لسانها عربي ودينها الإسلام، وتنتظر بطلقة العضوية في جامعة الدول العربية منذ نحو سبعة أعوام، وإن كان النفوذ الفرنسي لا يزال يتغلغل في أحشائها سياسيا وعسكريا وثقافيا كأغلب دول المغرب الإفريقي.

وللتأكد من شعوري، وإشباعا لغريزة الفضول التي تلح عليها هواية الكتابة، استدعيت ما في جعبتي من أدوات الاستفهام اللائقة، وعلمت أنها الصغرى لأسرة ثرية مات عائلها، فتولى الأخ الأكبر إدارة أموالها وتصريف ممتلكاتها، ولأنه كان منفلتا متلافا، ولم ير بأسا من المقامرة في أموال يتامى قصر؛ فقد تبددت الثروة عن بكرة أبيها، بين تجارة خاسرة ومغامرات طائشة، وأصبح لسان حال الأسرة: ألا عزا يباع فنشتريه، فهذا عيش لا خير فيه!

وقد كانت أسوأ نتائج هذا التحول الدرامي الذي طرأ على الأسرة، أن تلك الصغيرة لم تكمل تعليمها المرجو والمأمول، وبار سوق زواجها في مجتمع بائس يحسب حساب الثراء في الزواج وغير الزواج، فوقعت في حجر زوج معدم بالكاد يعيل نفسه، وبات عليها السعي إلى العمل كخادمة في هذه الدولة الخليجية لتطعم أطفالا تركتهم يصيحون هناك على البعد وسط لهيب القارة السمراء المحرومة.

هذا في الوقت الذي لا تجد التشاديين بوجه عام منتشرين في الخليج كبقية الجنسيات الإفريقية الناطقة بالعربية، حتى إنها كانت الخادمة التشادية الأولى التي أصادفها رغم مسيرتي الطويلة نسبيا في الغربة. ولعل في ضعف صلة الدولة التشادية بالعالم العربي دورا، واكتشاف البترول بها عام ٢٠٠٣م والبدء بتصديره عام ٢٠٠٤م دورا آخر.

والواقع أن المرارة كانت طافحة على محياها، ولولا أن مخدومها أسعفني بهذه المعلومات، لما ارتكبت حماقة التنقيب عن قصتها، ولأثرت الجهل على العلم؛ إذ ليس من الطب في شيء أن تنكأ جرحا في طريقه للاندمال، وليس من المروءة أن تقلب المواجع على نفس مثقلة بالكلوم والأوجاع، لاسيما إن كان صاحبها من النوع الرهيف الشفيف كفتاة تبكيها كلمة وتحزنها إشارة.

وقد أكبرت في كفيلها إمامه بقصتها، ووضعها في حسبانه من حيث المعاملة الكريمة اللائقة؛ فأحرى بالمرء أن يكون لأخيه ردءا لا عبئا، وسندا لا سيفا، خاصة أن الأيام دول والأحداث قروض، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، فنجد عندها من أصحاب القلوب البيضاء من يجبر خاطرنا ويهون مصائبنا ويرد لنا بعضا مما بذلناه من شهامة وأصالة تجاه الآخرين؛ فما «جزاء الإحسان إلا الإحسان»، و«من سار بين الناس جابرا للخواطر، أدركه الله في جوف المخاطر».

وليتني شددت همته، فرويت له كيف أن طبيب الأمراض الباطنية الشهير حسام موافي سأل فضيلة الإمام الشعراوي عن أفضل عمل يتقرب به إلى الله؟ فأجابه: جبر الخواطر. ثم تلا عليه قول الحق جل وعلا: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ (الماعون:١-٣) ويكأن كسر خاطر اليتيم والمسكين لا يضاهيه إلا التكذيب بالدين، وهو جرم ما أبشعه! خاصة إذا علمنا أن جبر خاطر هؤلاء وغيرهم يمكن تأديته بكلمة حانية وبسمة صافية، أو بقليل من المال وهدية يسيرة وعون زهيد، أو حتى ببعض اهتمام يشعرهم بكينونتهم وأهميتهم.